فيصل التفرقة

بين الاسلام والزندقة

ويليه رسالة فى الوعظ والعقائد

كلاهما

لحجة الاسلام ابى حامد الغزالى الطوسي

اعتنى بطبعه وتصحيحه وبعض التعليقات عليه

مصطفى القبانى الدمشقى

« الطبعة الاولى »

سنة ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م

مطبعة الترقى بشارع عبد العزيز بمصر

فيصل التفرقة

بين الاسلام والزندقة

ويليه رسالة فى الوعظ والعقائد

كلاهما

لحجة الاسلام ابى حامد الغزالى الطوسي

اعتنى بطبعه وتصحيحه وبعض التعليقات عليه

مصطفى القبانى الدمشقى

« الطبعة الاولى »

سنة ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م

مطبعة الترقى بشارع عبد العزيز بمصر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين .
وبعد فيقول مصطفى ابن المرحوم محمد القباني الدمشقي ان اهمّ ماتصبو اليه نفوس العقلاء وعقول الفضلاء الوقوف على سرّ منشأ الخلاف بين الأئمة . وبيان ما على كل مكلف من افراد الامة . وما دعا الناس لتكفير بعضهم بعضاً وجعل الاقوال بينهم ابراماً ونقضاً وكان البغية فى هذا الباب . والحجة البالغة لدى اولى الالباب ﴿كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقه﴾ لحجة الاسلام والمسلمين وعمدة الحكماء المنصفين الامام ابى حامد الغزالى طاب ثراه فانه سنّ لكل طبقة طريقاً وبرهن على ما به الانسان يكون مؤمناً او زنديقاً وحيث كان عصرنا مفتقراً لنشر مثله من الكتب بادرت لطبعه وجمعت له ثلاث نسخ الاولى من مكتبة الشريف النزيه وجيهى بك العمرى كتبت فى القرن السادس والثانية من المكتبة الخديوية ضمن مجموع نمرة ٢٢٧ والثالثة مصححة على ثلاث نسخ بقلم العلامة الفاضل سليم افندى البخارى من اعيان علماء دمشق ثم وجدت فى الكتاب قول بعض الأئمة والمجتهدين واسماء المذاهب الغابرة والحاضرة والباطنة والظاهرة وكان من الضرورى لمثل ذلك نبذة تكشف ما انطوى الكلام عليه وعكفت بعض المال عليه فكتبت على كل من ذلك لمعة كافية بالمقصود وأتممت زينة الكتاب بشدة الاعتناء بالتصحيح وجودة الورق والطبع فجاء بحمد الله مشتملاً على كل مطلوب وما اتكالى الا على الله . هو حسبي ونعم الوكيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الامام العالم العامل ابو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالی رحمة الله عليه : أحمد الله تعالى استسلاماً لعزته ، واستتماماً لنعمته ، واستغناماً لتوفيقه ومعونتـه وطاعته ، واستعصاماً من خذلانه ومعصيته ، واستدراراً لسوابغ نعمته ، وأصلي على محمد عبده ورسوله وخير خليقته ، انقياداً لنبوته ، واستجلاباً لشفاعته ، وقضاء لحق رسالته ، واعتصاماً بيمن سريرته ونقيبته ، وعلى آله واصحابه وعترته (امابعد) فانی رأيتك ايها الاخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر ، منقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فی اسرار معاملات الدين ، وزعمهم ان فيها ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وان العدول عن

مذهب الاشعري[1] ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته

(١) هو ابو الحسن الاشعري البصري شيخ طريقة اهل السنة والجماعة امام المتكلمين وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين والساعي فى حفظ عقائد المسلمين سعياً يبقى أثره الى يوم يقوم الناس لرب العالمين امام حبر وتقي حمى جناب الشرع من الحديث المفترى وقام فى نصرة ملة الاسلام فنصرها نصراً مؤزراً

بهمة فى الثريا أثر اخمصها   وعزمة ليس من عاداتها السأم

اليه تنسب الطائفة الاشعرية وشهرته تغنى عن الاطالة فى تعريفه والقاضى ابو بكر الباقلانى ناصر مذهبه ومؤيد اعتقاده كان مولد ابى الحسن بالبصرة سنة ستين ومايتين وقيل سبعين ومايتين اخذ علم الكلام أولاً عن أبى على الجبائى احد ائمة الاعتزال وتبعه فى الاعتزال ويقال اقام على الاعتزال اربعين سنة حتى صار للمعتزلة اماماً فلما اراده الله لنصر دينه وشرح صدره لاتباع الحق غاب عن الناس فى بيته خمسة عشر يوماً ثم خرج الى الجامع وصعد المنبر وقال معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المدة لانى نظرت فتعارضت عندي الادلة ولم يترجح عندى شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهدانى الى اعتقاد ما أودعته فى كتبي هذه وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبى هذا ، وتخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب اهل السنة

ولو فى شيء نزر ضلالٌ وخسر ، فهوّن ايها الأخ المشفق

الى الناس وكان شافعي المذهب تفقه على أبى اسحاق المروزى نص على ذلك الاستاذ ابو بكر بن فورك فى طبقات المتكلمين والاستاذ ابو اسحاق الاسفرايني فيما نقله عنه الشيخ ابو محمد الجوينى فى شرح الرسالة وكانت وفاته بين العشرين والثلاثين بعد الثلاثماية والاقرب انها سنة اربع وعشرين وهو ما صححه ابن عساكر ويقال سنة نيف وثلاثين وقيل سنة ثلاثين فجأة حكاه ابن الهمذانى فى ذيل تاريخ الطبرى ببغداد ودفن بين الكرخ وباب البصرة رحمه الله وله من الكتب كتاب اللمع وكتاب المؤجز وكتاب ايضاح البرهان وكتاب التبيين عن اصول الدين وكتاب الشرح والتفصيل فى الرد على اهل الأفك والتضليل وكتب اخرى فى الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرفضة والجهمية والخوارج وسائر اصناف المبتدعين ودفن فى مشرع الزوايا فى تربة الى جانبها مسجد وبالقرب منه حمام وهو عن يسار المار من السوق الى دجلة والأشعرى بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة وبعدها رآء هذه النسبة الى اشعر واسمه نبت ابن ادد بن زيد ابن يشجب وانما قيل له اشعر لان أمه ولدته والشعر على بدنه هكذا قاله السمعانى اه باختصار طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي وابن خلكان

المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ، وقُلَّ من غربك قليلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ، واستحقر من لا يُحْسد ولا يُقذف ، واستصغر من بالكفر او الضلال لا يُعْرَف ، فأيُّ داع اكمل واعقل من سيد المرسلين ، صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأيُّ كلام اجلّ واصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه اساطير الاولين ، واياك ان تشتغل بخصامهم ، وتطمع فى افحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كلُّ العداوة قد تُرْجى سلامتها

الا عداوةَ مَن عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لاحد من الناس ، لما تلى على اجلّهم رتبة آيات اليأس ، او ما سمعت قوله تعالى (وان كان كَبُرَ عليك إِعراضُهم فان استطعتَ أن تبتغيَ نَفَقاً فى الارض او سُلَّماً فى السماء فتأْتِيَهُمْ بآية ولو شاء اللهْ لجَمَعَهُمْ على الهدى فلا تكونَنَّ من الجاهلينَ) وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم باباً من

السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قومٌ مسحورون) وقوله تعالى (ولو نزّلنا عليك كتاباً فى قرطاسٍ فلمسوهُ بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا الا سحرٌ مبينٌ) وقوله تعالى (ولو أننا نزّلنا اليهم الملائكةَ وكلّمهمُ الموتى وحشرنا عليهم كل شيءٍ قبُلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاءَ اللّهُ ولكنّ أكثرَهمْ يجهلونَ) واعلم ان حقيقة الكفر والايمان وحدّهما ، والحق والضلال وسرهما ، لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما ، بل انما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ اوضار الدنيا اولا ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ثم نورت بالذكر الصافى ثالثاً ثم عذبت بالفكر الصائب رابعاً ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامساً حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة مجلوة ، وصار مصباح الايمان فى زجاجة قلبه مشرق الانوار ، يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار ، وأنى تتجلى اسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وارادتهم جاههم وشهواتهم ،

وعبادتهم خدمتهم اغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من اين تميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان ، أبالهام إلهيّ ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها ، ام بكمال علمي وانما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وامثالهما ؟ هيهات هيهات هذا المطلب انفس واعز من ان يُدرك بالمنى ، او يُنال بالهوينا ، فاشتغل انت بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك ، و(أعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد الا الحياةَ الدنيا ذلك مبلغُهم من العلم إنَّ ربك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بمن اهتدى)

فصل

فأما انت ان اردت ان تنتزع هذه الحسكة من صدرك ، وصدر من هو في حالك ، ممن لا تحركه غواية الحسود ، ولا تقيده عماية التقليد ، بل تعطشه الى الاستبصار لحزازة اشكال

اثارها فكر وهيجها نظر. فخاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر فان زعم ان حد الكفر ما يخالف مذهب الاشعرى او مذهب المعتزلي (١)

(١) هو ابو حذيفة واصل بن عطاء امام المعتزلة المعروف بالغزال مولى بني ضبة وقيل مولى بنى مخدوم والمعتزلى والمعتزلة نسبة اليه كان احد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علوم الكلام وغيره وسبب تسميته واياهم بالاعتزال هو ما ذكره السمعانى في كتاب الانساب فى ترجمة المعتزلى قال ان واصل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى رضى الله عنه فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بانهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد المتكلم المشهور فقيل لهما ولاتباعهما معتزلون وقيل دخل قتادة الاكمه مسجد البصرة فاذا بعمرو بن عبيد ونفر معه قد اعتزلوا من حلقة الحسن البصرى وحلقوا وارتفعت اصواتهم فامهم وهو يظن انها حلقة الحسن فلما صار معهم عرفها انها ليست هي فقال انما هؤلاء المعتزلة ثم قام عنهم فذ يومئذ سموا المعتزلة ولواصل من التصانيف كتاب اصناف المرجئة وكتاب في التوبة وكتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب خطبته التى اخرج منها الراء وكتاب معانى القرآن وكتاب الخطب في

او مذهب الحنبلي[(١)] او غيرهم فاعلم انه غِرٌّ بليد ، قد قيده

التوحيد والعدل وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد وكتاب السبيل الى معرفة الحق وكتاب طبقات اهل العلم والجهل وغير ذلك واخباره كثيرة وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوفى سنة احدى وثمانين ومائه اه باختصار خلكان

(١) نسبة الى امام المذهب وهو الامام ابو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل بن هلال وينتهي نسبه لمعد بن عدنان الشيباني المروزى الاصل خرجت امه من مرو وهي حامل به فولدته فى بغداد فى شهر ربيع الاول سنة اربع وستين ومائة وقيل انه ولد بمرو وحمل الى بغداد وهو رضيع وكان امام المحدثين صنف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره وقيل انه كان يحفظ ألف ألف حديث وكان من أصحاب الامام الشافعي وخواصه رضى الله عنهما ولم يزل مصاحبه الى ان ارتحل الشافعي الى مصر وقال فى حقه خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل ودعى الى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع وكان ضربه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومايتين اخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل منهم محمد بن اسمعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع توفى ضحوة

التقليد ، فهو أعمى من العميان ، فلا تضيع باصلاحه الزمان ، وناهيك حجة فى افحامه ، مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، اذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلا . ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب الى الاشعرىّ ، ويزعم ان مخالفته فى كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلىّ ، فاسئله من اين ثبت له ان كون الحق وقفاً عليه حتى قضى بكفر الباقلانى(١) اذ خالفه فى صفة البقاء

نهار الجمعة لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة احدى واربعين ومايتين ببغداد ودفن بمقبرة باب حرب وقبره بها يزار وحصر من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثمانماية ألف ومن النساء ستين ألفاً رحمه الله تعالى اه باختصار خلكان

(١) هو القاضي ابو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني البصرى المتكلم كان على مذهب الشيخ ابى الحسن الأشعرى ومؤيداً اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وصنف التصانيف الكثيرة فى علم الكلام وغيره وكان فى علمه اوحد زمانه وانتهت اليه الرياسة فى مذهبه وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب وسمع الحديث وكان كثير التطويل فى المناظرة مشهوراً

لله تعالى وزعم انه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات ولِمْ صار الباقلانى اولى بالكفر بمخالفته الاشعرىَّ من الاشعرى بمخالفته الباقلانى ؟ ولم صار الحق وقفاً على احدهما دون الثانى ؟ أكان ذلك لاجل السبق فى الزمان ؟ فقد سبق الاشعريَّ غيرُه من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه ! ام لاجل التفاوت فى الفضل والعلم ؟ فبأيّ ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا افضل فى الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فان رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما الفرق

بذلك عند الجماعة توفى رحمه الله آخر يوم السبت ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سنة ثلاثة واربعماية ببغداد ورثاه بعض شعراء عصره بقوله :

انظر الى جبل تمشى الرجال به وانظر الى القبر مايحوى من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام مغتمداً وانظر الى درة الاسلام فى الصدف

وصلى عليه ابنه الحسن ودفنه فى داره بدرب المجوس ثم نقل بعد ذلك فدفن فى مقبرة باب حرب والباقلانى نسبة الى الباقلى اهـ باختصار خلكان

بين الباقلانى والكرابيسى (١) والقلانسى (٢) وغيرهم ؟

(١) هو ابو على الحسين بن على بن يزيد الكرابيسي البغدادي صاحب الامام الشافعي رضى الله عنهما واشهرهم بانتياب مجلسه واحفظهم لمذهبه وله تصانيف كثيرة فى اصول الفقه وفروعه وكان متكلماً عارفاً بالحديث وصنف أيضاً فى الجرح والتعديل وغيره وأخذ عنه الفقه خلق كثير توفى سنة خمسة وقيل ثمان وأربعين ومائتين وهو اشبه بالصواب والكرابيسى نسبة الى الكرابيس وهي الثياب الغليظة واحدها كرباس بكسر الكاف وهو لفظ فارسى عرّب وكان يبيعها فنسب اليها اه باختصار خلكان

(٢) هو ابو العباس قال العلامة السجستانى فى الملل والنحل اما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه فمنهم مالك ابن أنس واحمد بن حنبل وسفيان وداود الاصفهانى ومن تابعهم حتى انتهى الزمان الى عبد الله بن سعيد الكلابى وابي العباس القلانسى والحرث ابن أسد المحاسبي وهؤلاء كانوا من جملة السلف الا انهم باشروا علم الكلام وايدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين اصولية وقال العلامة حسن صديق خان فى كتابه خبيئة الاكوان عند قوله على علماء الكلام مانصه

ومما يناضل المعتزلة فى قدم الكلام على قول ظاهر عبد الله بن سعيد الكلابى وابو العباس القلانسى والحارث المحاسبي وكانوا اشبههم اتقاناً وامتنهم كلاماً

وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟ وان زعم ان خلاف الباقلاني يرجع الى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعماً انهما جميعاً متوافقان على دوام الوجود والخلاف فى أن ذلك يرجع الى الذات او الى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات وهو معترف بان

وقد راجعت طبقات الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى للسبكي وطبقات الحزامي وطبقات الحنفية وتاج التراجم وطبقات المالكية لابن فرحون واللباب في الانساب لابن الاثير ولب اللباب للسيوطى ومعجم البلدان لياقوت الحموي والمسالك لابن خرازدبه ولسان العرب والقاموس وشرحه وكثير من التواريخ فلم اقف على ترجمته وذكر ابو الفلاح صاحب شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ترجمة ابن بندار القلانسى مقرى العراق المتوفى سنة احدى وعشرين وخمسماية وأيضاً ترجمة العميد ابن القلانسى صاحب تاريخ دمشق انتهى به الى سنة خمس وخمسين وخمسماية وتوفى بها في ربيع الاول عن بضع وثمانين سنة وذكر في تاج العروس ترجمة القلانسى المحدث والقلانسى الفقيه وكلاهما من المتأخرين والجميع لم يعرفوا بعلم الكلام مع تأخرهم عن الامام الغزالى اهـ

الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات
وانما يخالف الاشعرى فى انه عالم وقادر بالذات او بصفة زائدة
فما الفرق بين الخلافين وأي مطلب اجل وأخطر من صفات
الحق سبحانه وتعالى فى النظر فى نفيها وأثباتها فان قال انما
اكفر المعتزلى لانه يزعم ان الذات الواحدة تصدر منها فائدة
العلم والقدرة والحياة وهذه صفات مختلفة بالحد والحقيقة
والحقائق المختلفة تستحيل ان توصف بالاتحاد او تقومَ مقامها
الذاتُ الواحدة فما باله لا يستبعد من الاشعرى قوله ان الكلام
صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحد هو توراة
وانجيل وزبور وقرآن وهو امر ونهى وخبر واستخبار وهذه
حقائق مختلفة وكيف لا وحدُّ الخبر ما يتطرق اليه التصديق
والتكذيب ولا يتطرق ذلك الى الامر والنهى فكيف تكون
حقيقة واحدة يتطرق اليها التصديق والتكذيب ولا يتطرق
فيجتمع النفي والاثبات على شيء واحد فان تخبط فى جواب
هذا او عجز عن كشف الغطاء فيه فاعلم انه ليس من اهل
النظر وانما هو مقلد وشرط المقلد ان يَسكت ويُسكت

عنه لانه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ولو كان اهلاً له كان مستتبعاً لا تابعاً واماماً لا مأموماً فان خاض المقلد فى المحاجّة فذلك منه فضول والمشتغل به صار كضارب فى حديد بارد وطالب لصلاح الفاسد وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ولعلك ان انصفت علمت ان من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه فهو الى الكفر والتناقض اقرب اما الكفر فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الايمان الا بموافقته ولا يلزم الكفر الا بمخالفته واما التناقض فهو ان كل واحد من النظار يوجب النظر وان لا ترى فى نظرك الا ما رأيت وكل ما رأيته حجة وأي فرق بين من يقول قلّدنى فى مجرد مذهبي وبين من يقول قلدنى فى مذهبي ودليلى جميعاً وهل هذا الا التناقض

فصل

لعلك تشتهي ان تعرف حد الكفر بعد ان تتناقض عليك حدود اصناف المقلدين فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض ولكني اعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان فى اهل الاسلام وان اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول لا اله الا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها فاقول :

الكفر هو تكذيب الرسول عليه السلام فى شىء مما جاء به والايمان تصديقه فى جميع ما جاء به فاليهودي والنصرانى (١)

(١) نسبة الى اليهود والنصارى وهما امتان من كبار امم اهل الكتاب والامة اليهودية اكبر سابقاً لان الشريعة كانت لموسى عليه السلام وجميع بنى اسرائيل كانوا متعبدين بذلك مكلفين بالتزام احكام التوراة والانجيل النازل على المسيح عليه السلام لم يختص باحكام ولا يستنبط منه حلال وحرام ولكنه رموز وامثال ومواعظ ومزاجر

كافران لتكذيبهما للرسول عليه السلام والبرهمي كافر

وما سواها من الشرائع والاحكام فحالة على التوراة فكانت اليهود لهذه القضية لم ينقادوا لعيسى عليه السلام وادعوا عليه انه كان مأموراً بمتابعة موسى وموافقة التوراة فغير وبدل وعدوا عليه تلك التغيرات منها تغير السبت الى الاحد ومنها تغيير اكل الخنزير وكان حراماً في التوراة ومنها الختان والغسل وغير ذلك والمسلمون قد بينوا ان الامتين قد بدلوا وحرفوا والا فعيسى كان مقرراً لما جاء به موسى عليه السلام وكلاهما مبشران بمقدم نبينا نبي الرحمة صلوات الله عليهم اجمعين وقد امرهم ائمتهم وانبياؤهم وكتابهم بذلك وانما بني اسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة رسول آخر الزمان فامروهم بمهاجرة أوطانهم بالشام الى تلك القلاع والبقاع حتى اذا ظهر وعان الحق بعد ان هاجروا الى يثرب هجروه وتركوا نصرته وذلك قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وانما الخلاف بين اليهود والنصارى ما كان يرتفع الا بحكمة اذ كانت اليهود تقول ليست النصارى على شيء وكانت النصارى تقول ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب وكان النبي عليه السلام يقول لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما كان يمكنهم اقامتهما الا باقامة القرآن وتحكيم نبي الرحمة رسول آخر الزمان فلما ابوا ذلك ضربت

بالطريق الاولى (١) لانه انكر مع رسولنا سائر المرسلين

عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله . واظهر فرق اليهود خمسة العنانية والعيسوية واليوزعانية والموشكانية والسامرة وتحتها فرق فهذه الفرق هي اكبر فرق اليهود واما النصارى فكبار فرقهم ثلاثة الملكانية والنسطورية واليعقوبية وانشعبت منها الاليانية والبليارسية والسبالية والبوطينوسية والبولية الى سائر الفرق اه باختصار شهرستاني

(١) نسبة الى برهم وهو المعبود الاول عند الهنود وهو أصل كل الموجودات واحد غير متغير وغير مدرك ازلي مطلق سابق كل مخلوق خالق العالم كله بمجرد ما أراد دفعة واحدة بقوله أوْم أي كن وعلى ذلك لايكون برهم الا تشخيصاً لكل القوى الباطنة والظاهرة للطبيعة أي عبارة عن هذه القوى الطبيعية مجتمعة في فرد مستمر زمناً طويلاً على حالة واحدة وكثيراً ما يجعلون نفس برهم اسماً للاقانيم الثلاثة المؤلف منها ثالوث الهنود وهي برهما ووشنو وسيوا ويقال لبرهم سوايميو اي القائم بذاته وسرقان اكياران اى الازل وبرامندا اى بيضة برهما وبراجاباتي اى ابا المخلوقات واهام أي انا هو واهنكارا اى قدرتي انا وفتش اى الكلمة ولفظة برهم فارسية مركبة من براى ارتفاع وماه أي عظيم أو ميه اى النشر أو البسط كناية عن القبة المقعرة السماوية

التى لا تتغير شكلاً ولا وضعاً والنجوم الزاهرة تحتها ومن برهم تولد النور المسمى عندهم مارتشى الذى اتحد مع فاسيايا اى الخلاء فولدا كل الكائنات فالثالوث اذاً ليس الا عبارة عن المخلوقات المادية في ثلاث رتب رتبةعلياء ورتبة وسطىورتبة سفلى ويقال لعبدة برهم البرهميون و البراهمة وبرهما نفس برهم معبود الهنود بعد ان شرع فياعماله وهو الاقنوم الاول من الثالوث الهندى لان برهم ينبثق من نفسه في ثلاثة اقانيم كل مرة في اقنوم فالاقنوم الاول الذى يظهر به أول مرة هو برهما والثانى وشنو والثالث سيوا فلما انبثق برهما ابث مدة طويلة جالساً على سدرة تسمى بالهندية كالا وبالسنسكريتية بدما وكان ينظر من كل جهة وله اربعة رؤوس بثمانى اعين فلم يرَ الا فضاء واسعاً مظلماً مملوءاً ماء فارتاع لذلك ولم يقدر ان يدرك سر اصله فلبث ساكتاً ابكم غارقاً في التأملات فمضت على ذلك اجيال واذا بصوت قد طرق اذنيه بغتة ونبهه من سباته وأشار عليه ان يفزع الى باغاوان وهو لقب برهم فظهر برهمبصورة رجل له ألف رأس فسجد له برهما وجعل يسبحه فانشرح صدر باغاوان وابدع النور وكشف الظلمات واظهر لعبده حالة كينونته والكائنات بصور جراثيم متخدرةواعطاه القوة لاخراجها من هذا الخمول فبقي برهما يتأمل فى ذلك مابة سنة الهية وهي عبارة عن ستةوثلاثين الف سنة شمسية ثم ابتدأ بالعمل فابدع أولاً السموات

السبع المسماة عنــدهم سُورْغة وانارها بالاجرام المسماة ديڤانة ثم ابدع مرتيلوكا اى مقر الموت ثم الارض وقربها ثم المساكن السبعة السفلى المسماة بتالة وانارها بثمانية جواهر موضوعة على رؤوس ثمانى حيات فالسموات والمساكن السفلى السبعة هي العوالم الاربعة عشر فى الميثولوجيا الهندية ثم خلق الارواح السبعة لكي تعينه فامتنع بعضها فتزوج حينئذ اخته سارا سواتى واولدها ماية ولد وكان البكر اسمه دكشا فولد له خمسون بنتاً فتزوجت ثلاثة عشر منهن كاسيابا وولدت اديتى الارواح المنيرة المسماة ديڤانه وهى التى تفعل الخير وتسكن السموات واختها ديتى ولدت جمهوراً غفيراً من الارواح الشريرة المسماة اسورة وهي سكان الظلام وفاعلة كل شر فى العالم ثم ان برهما ولد اربعة اولاد وهم برهمان وكشتريا وڤايسيا وسودرا فكانوا اربعاروامات لاربع فرق أصلية وتزوج الثلاثة الاخيرون بثلاث نساء منه فهذا خلاصة ما في الڤيداس عن كيفية خلق العالم

ثم ان برهما بعد ان كان الاله الخالق القدير سقط عن رتبة وشنو الاقنوم الثانى وسيوا الاقنوم الثالث لانه انتفخ بالكبرياء والعجب وظن نفسه نظير العلي فسقط فى الجحيم ولم ينل العفو الا بشرط ان يتجسد مرة في كل من الاجيــال الاربعــة فتجسد اول مرة بصورة غراب شاعر اسمه كاكابوشندا وفي الثانية بصورة باريا ڤلميكى فكان اولا لصاً

ثم رجلاً عبوساً رزيناً نادماً ثم ترجماناً مشهوراً للفيداس ومؤلفاً للراميانا وفي المرة الثالثة بصورة فياسيا وهو شاعر ومؤلف المهابارانا واليفاقة وعدة بورانات وفي المرة الرابعة وهو العصر الحالي المسمى كالي يوغ بصورة كاليداسا الشاعر التشخيصي العظيم ومؤلف ساكنتالا ومنقح مؤلفات قامينكي ثم ان برهما ظهر في ثلاث أحوال ففي الحال الاولى كان الواحد الصمد والكل الاعظم العلي وفي الحال الثانية ظهر منبثقاً من الاول اي شارعاً في العمل وفي الحال الثالثة ظهر متجسداً بصورة انسان وحكيم وليس لبرهما عبادة عامة في الهند بل له هناك هيكل واحد فقط غير ان البراهمة يجعلونه موضوع عبادتهم ويدعونه مساء وصباحاً وهم يرمون الماء ثلاث مرات براحة ايديهم على الارض ونحو الشمس ويجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهرة وفي تقديس النار يقدمون له سمناً مصفى كما يقدمون لاله النار وهذا التقديس اهم واقدس من كل ما سواه واسمه هوم ولبرهما القاب كثيرة ويمثل بلحية طويلة باحدى يديه سلسلة الكائنات وبالاخرى الاناء الذي فيه ماء الحيوة السموي راكباً على الهمسا وهو الطير الالهي الذي يشبه اللقلق والنسر

واما برهمان فهو ابن برهما البكر اخرجه من فيه وجعل نصيبه الكتب الاربعة المقدسة المسماة فيداس كناية عن الكلمات الاربع التي نطق بها بافواهه الاربعة فلما اراد برهمان ان يتزوج نظير اخوته قال

له برهما انك ولدت للدرس والصلاة فيجب ان تبتعد عن العلاقات الجسدية فلم يقتنع برهمان بقول ابيه فغضب برهما وزوجه بواحدة من جنيات الشر المسماة اسورة ومن هذا ولد البراهمة وهم الكهنة المقدسون الذين خصوا بتفسير الفيداس وكانوا يتولون امر كل التقدمات التي يقدمها الهنود للالهة وولد كشتريا صنف الحربيين من البراهمة وفايسيا صنف اهل الزراعة منهم وسودرا صنف العبيد فالبراهمة اربعة اصناف ويستدل من هذه الرموز ان الصنفين الاولين هما من سلالة ايرانية اكتسحت بلاد هندستان وهم يسمون انفسهم ارياس وهو نفس اربي عند اليونان الذى هو اسم المادبين عندهم والصنف الثالث هم السكان الاصليون المصقع الذى بين نهر السند ونهر الكنك والصنف الرابع من سلالة الهنود الاولين الذين لونهم اصفر وربما كان اقتران برهمان بامرأة من نسل شرير رمزاً الى أصل هذه الامة المتولدة من المادبين والفرس فاذاً البرهميون أو البراهمة الذين ولدوا من برهمان بن برهما كان اصلهم من سلالة رؤساء الهند الفاتحين كما قيل لانهم كانوا اصحاب الرتبة الشريفة العلمية فى ايران وكان بعضهم يتكهن فسموا بذلك من بر بالفارسية ومعناها فوق ومان ومعناه رجل حكيم فلما اشتركوا بالحروب مع اهل بقطريانة وشطوط نهر السند وكابل وافغانستان صاروا أصحاب الرتبة الثانية وهم الكشترية والخصام الذى بينهم وبين اصحاب زرادشت المجوس

فالظاهر أن سببه الشرك الذي اراد زرادشت ان يبطله ويجعل الناس يعبدون معبوداً واحداً والبراهمة يعتبرون الشمس التى هى ينبوع النور والحرارة الاله الوحيد وأول المعبودات وذلك دليل على انهم فرع قديم من اهل العبادة القديمة المجوسية التى اصلحها زرادشت ولا يعلم بالتحقيق الزمن الذى استوطنت فيه البراهمة فى هندستان وقد ذكر هيرودوتس عن الشعوب الذين كانوا ساكنين على ضفاف نهر الكنك كلاماً يستفاد منه ان البراهمة لم يكونوا الى ذلك الوقت فتحوا البلاد فانه يقول ان سكان اهل البلاد كانوا امتين احداهما حشية والاخرى انيسة وكانوا يقتاتون بالنبات فالاولى لا يمكن ان تكون برهمية والثانية لا يمكن ان تكون قادرة على فتح البلاد لضعفها وذكر فى رواية ساكنتالا انه في زمن الملك دشمانتا كان البراهمة لا يأكلون الصيد وربما كان البراهمة فاتحو هندستان قد اقتبسوا بعض عادات الامة الأنيسة المذكورة ومنعوا اكل اللحوم نظيرهم وربما كانوا قد اقتبسوا قسماً عظيماً من العبادة السيوائية التى كانت من زمن طويل فى لانكا اى جزيرة سيلان وفى جوار الكنك وهي فى الاصل من ايران والبراهمة هم كهنة الهنود وحكماؤهم وعلماؤهم ورؤساء الدين والعلم والأدب يشتغلون بالصلاة والتسبيح والترتيل والعلوم الالهية والطب والتنجيم ويتنسك بعضهم فى كهوف الجبال وعلى ضفاف الكنك وقد سميت طائفة منهم عند اليونان باسم جيمنوسوفست اى

حكماء عراة لانهــم كانوا لا يلبسون ثياباً ولا يسترون اجسامهم وهم قليلو الكلام لايأكلون لحم الحيوان بل يقتصرون فى قوتهم على النباتات والثمار ولبن البقر والادر ويكثرون الصوم وقد ذكر بلوترخس ان الحكماء العشرة الذين اسرهم الاسكندر الكبير كانوا عراة وان الاسكندر تعجب من حذاقتهم وحدة اذهانهــم وانه اعادهم موقرين تحفاً وقد ذكر بعض العلماء البراهمة انهــم قوم قد عكفوا على الفلسفة وعبادة الشمس يعيشون فى الفلاة يشتغلون بالوقوف على الحقائق لايأكلون شيئاً من اللحوم ولا يلبسون الا نسيج الاسبستوس ينسجونه بايديهم ولايغسلونه بل اذا اتسخ يطرحونه فى نار شديدة فينقى ويبيض كالثلج ومهما اختلفت الآراء فيهم فالمعروف ان الانيسة كانوا يسكنون الغابات والكهوف والفلوات وعن الانيسة اخذ الهنود معارفهم وحكمتهم التى اخذت فى هــذه الاعصر بالتلاشى والبراهمة لا يجوزون على الله بعثة الرسل ويعتقدون خلود النفس والتناسخ ويمارسون الوضوء والتقشفات وسائر الرياضات وهم اربعة اصناف كما تقدم صنف الكهنة والعلماء ثم الحربيون ومنهم الحكام الملقبون بارجة ثم اهل الزراعة ثم الفعلة اصحاب الصنائع والمهن اه بتصرف عن دائرة المعارف

(١) نسبة الى ابيقور الدهري احد فلاسفة اليونان ومؤسس

مذهب الدهريين ويقال له ولاصحابه دهريون ونيشريون اي طبيعيون أسس مذهبه على انكار الالوهية وجحد البعث والنشور ويوم العرض والجزاء وذهب الى ترك العبادات والادعية والصلوات ونحوها وأن لا فائدة لكل ذلك واستند بالحوادث كلها لطبيعة الدهر وما ثمت الا ارحام تدفع وأرض تبلع وكان يقول ان من ضعف الرأي خوف الانسان من جهنم وان ما ذكره جاهليــة اليونان من انواع عقابات جهنم ككون البعض يعاقب بالجوع والظمأ الدائم والبعض يعاقب بان يدحرج حجراً مستديراً من اسفل جبل الى اعلاه كلما دحرجه عاد اليه والبعض يكاف أن ينضح بدلوه حتى يملأ حوضاً متخرقاً ونحو ذلك فانما هي خرافات واختراعات للتنبيــه على مكاره الدنيا وانه ينبغي للانسان أن يتجنب ما يزعجه مما لا يستعمل الا لتنكيد معيشة الدنيا وتضييع الهناء

وُلد هذا الفيلسوف بمدينة اثينا في السنة الثالثة من الالمبياد التاسع بعد المائة (اي قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة واربعة واربعين سنة) ومات بأثينا بداء حصر البول وذلك في السنة الثانية من الالمبياد السابع والعشرين بعد المائة وعمره اثنان وسبعون سنة ومن اراد الوقوف على ايضاح مذهبه فليرجع الى تاريخ فلاسفة اليونان فان ترجمته واعتقاده مبسوطان فيه وأيضاً الى رسالة ابطال مذهب الدهريين للعلامة جمال الدين فانها غاية في بابها اهـ

مثلا اذ معناه اباحة الدم والحكم بالخلود فى النار ومدركه شرعى فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص وقد وردت النصوص فى اليهود والنصارى والتحق بهم بالطريق الاولى البراهمة والثنوية(١)

(١) قال المقريزي هم المجوس ويقولون باصلين هما النور والظلمة ويزعمون أن النور هو يزدان والظلمة اهرمن ويقرون بنبوة ابراهيم عليه السلام وهم ثمانى فرق الكيومرثيه اصحاب كيومرث الذي يقال انه آدم والزروانية اصحاب زروان الكبير والزرادشتية اصحاب زرادشت ابن بيورشت الحكيم والثنوية اصحاب الاثنين الازليين والمانوية اصحاب مانى الحكيم والمزدكية أصحاب مزدك الخارجى والبيصانية أصحاب بيصان القائل بالاصلين القديمين والفرقونية القائلون بالاصلين وأن الشر خرج على ابيه وأنه تفكر في فكرة أفكرها في نفسه فلما خرج على أبيه الذي هو الاله بزعمهم عجز عنه ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات وهم الملائكة ومنهم من يقول بالتناسخ ومنهم من ينكر الشرائع والانبياء ويحكمون القول ويزعمون أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل

. ونقل التهانوى ان الثنوية فرقة من الكفرة يقولون باثنينية الاله قالوا نجد في العالم خيراً كثيراً وشراً كثيراً وان الواحد لا يكون خيراً شريراً بالضرورة فالكل منها فاعل على حدته وتبطله دلائل الوحدانية ثم المأمونة والديصانيــة من الثنوية قالوا فاعل الخير هو النور. وفاعل

الشر هو الظلمة والنور حيّ عالم قدير سميع بصير والمجوس منهم ذهبوا الى ان فاعل الخير هو يزدان وفاعل الشر هو اهرمن ويعنون به الشيطان اه

واما البصانية الذين ذكرهم المقريزى فالصواب انهم الديصانية الذين ذكرهم التهانوي والمأمونية الذين ذكرهم المقريزي وان يزدان الذي ذكر فى كليهما هو المعروف عند الفرس باسم اورمزد وتحقيق المذهب انه ميثولوجي أو ديني فقد ذكر الوثنيون فى لاهوتهم ان المعبودات قسمان منبثقان من اصلين ازليين الواحد فاعل الخير والآخر فاعل الشر فمنهم من يقول ان كليهما متساويان فى القوة والزمان ومنهم من يقول ان فاعل الخير ادنى رتبة من فاعل الشر وان الاول سينتصر على الثانى انتصاراً تاماً والمذهب الميثولوجى شاع بين كل الامم القديمة تقريباً وعبروا عنه برموز مختلفة فالصينيون قالوا ان ينغ هو اصل الخير وين هو اصل الشر وعند المصريين كان تيفون عبارة عنهما وكذلك نفتيس ذو الصفتين وعند الهنود ان وشنو اصل الخير وانه يحارب اصل الشر على صور مختلفة وان ڤارونا مشترك بينهما فتارة يكون للخير واخرى للشر وعند الفرس هما أورمزد واهرمن واما مذهب الفلاسفة فالثنوية يقصدون تقرير أصل الشر وإيضاح تركيب العالم وبقائه فالأصلان المزعومان عندهم هما الروح او العقل والمادة فالروح هي المبدأ الفاعل

ويزعمون انه لولا المادة لم يمكنه أن يخلق العالم وذهب افلاطون الى ان دوام المـادة هو سبب الشر والرواقيون من هذا المذهب . وقد اختلفت آراء الفلاسفة فى طبيعة المادة فذهب فيثاغورس الى انها عدد ينقسم الى ما لانهاية له وقال افلاطون انها الحيز أو الأين والكمية غير المحدودة وقال ارسطو انها الكائن ذو القدرة والبسيط الممكن . اه دائرة المعارف

(١) جمع زنديق والهاء عوضاً عن الياء المحذوفة وأصل الجمع زناديق وهي كلمة فارسية معربة عن زنده نسبة الى زند اسم كتاب أظهره مزدك رئيس الفرقة المزدكية من الثنوية فى زمن كسرى قباد فنسب اليه اصحابه وهم الزنادقة وقتله كسرى انوشروان وقيل معرب زن دين أى صاحب الدين اشارة الى المعتقد بدين زرادشت او هي معربة عن الزندا وهو دين المجوس وفي تعريفه اقوال كثيرة منها انه الثنوي القائل بوجود خالقين أحدهما اله النور وهو يزدان والثانى اله الظلمة وهو اهرمن والاول اله الخير وخالقه والثانى اله الشر وخالقه وهو مذهب الفرس القدماء وقيل انه من لا يؤمن بالله والربوبية ، وكتب الزنادقة تبيح الاشتراك في الاموال والنساء كاشتراك الناس فى الماء والكلأ ويطلق لفظ الزنديق عند العرب على من ينفى

وجود الباری تعالی او یثبت له شریکاً او ینکر حکمته وعلی هذاقول ابن الراوندی :

کم عاقل عاقل أعیت مذاهبه　　وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذی ترك الاوهام حائرة　　وصیر العالم النحریر زندیقا

أی لو کان للعالم صانع حکیم لما کان العاقل رديء الحال والجاهل رخيّ الحـال وقیل انه من یبطن الکفر ویظهر الایمان وعلیه قول بعضهم :

بغداد دار لاهل المال طیبة　　وللمفالیس دارالضنك والضیق
ظللت حیران أمشی فی أزقتها　　کأنی مصحف فی بیت زندیق

وقیل انه من لا یتدین بدین

اما حکمه الشرعي فقد قیل انه لایخلو اما ان یکون معروفاً داعیاً الی الضلال او لا والاول یقتل ولا تقبل توبته الا ان کانت ابتداء منه من غیر خوف قتل الحاکم وهذا مذهب الامام مالك والغزالی وبعض اصحاب الامام الشافعی وابی اللیث وعلیه افتی الامام القاضی فخر الدین خان رحمهم‌الله‌الجمیع : والثانی علی ثلاثة اوجه وهو إما انیکون زندیقاً من الاصل علی الشرك او یکون مسلماً فتزندق او یکون ذمیاً فتزندق فالاول یترك علی شرکه ان کان من العجم لانه کافر اصلي والثانی یعرض علیه الاسلام فان اسلم فیها والا قتل لانه مرتد والثالث یترك علی حاله

فكل كافر مكذب للرسول وكل مكذب فهو كافر فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة

فصل

اعلم ان الذى ذكرناه مع ظهوره تحته غور بل تحته كل الغور لان كل فرقة تكفر مخالفها وتنسبه الى تكذيب الرسول عليه السلام فالحنبلي يكفر الاشعريَّ زاعماً انه كذب الرسول فى اثبات الفوق لله تعالى وفى الاستواء على العرش ، والاشعرى يكفره زاعماً انه مشبّه وكذب الرسول فى انه ليس كمثله شيء ، والاشعرى يكفر المعتزليَّ زاعماً انه كذب الرسول فى جواز رؤية الله تعالى وفى اثبات العلم والقدرة والصفات له ، والمعتزلي يكفر الاشعرى زاعماً ان اثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول فى التوحيد ولا ينجيك من هذه الورطة الا ان تعرف

لان الكفر ملة واحدة وهذا خلاصة ما قيل في رسالة ابن كمال باشا ورسالة اخرى لاحد علماء الدولة العثمانية ودائرة المعارف وبعض كتب اللغة فى حكم الزنديق وحدّه

حدّ التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه فينكشف لك غلو هذه الفرق واسرافها فى تكفير بعضها بعضاً

فاقول التصديق انما يتطرق الى الخبر بل الى المخبر وحقيقة الاعتراف بوجود ما اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده إلا ان للوجود خمس مراتب ولاجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها الى التكذيب فان الوجود ذاتىّ وحسى وخيالي وعقلي وشبهي فمن اعترف بوجود ما اخبر الرسول عليه السلام عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الاطلاق فلنشرح هذه الاصناف الخمسة ولنذكر امثالها في التأويلات :

اما الوجود الذاتى فهو الوجود الحقيقى الثابت خارج الحس والعقل ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة فيسمى اخذه ادراكاً وهذا كوجود السموات والارض والحيوان والنبات وهو ظاهر بل هو المعروف الذي لا يعرف الاكثرون للوجود معنى سواه

واما الوجود الحسى فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من

العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجوداً في الحس ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره وذلك كما يشاهده النائم بل كما يشاهده المريض المتيقظ اذ قد تتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه بل قد تتمثل للانبياء والاولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة وينتهي اليهم الوحي والالهام بواسطتها فيتلقون من امر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى (فتمثَّل لها بشراً سوياً) وكما انه عليه السلام رأى جبريل عليه السلام كثيراً ولكن ما رآه في صورته الا مرتين وكان يراه في صور مختلفة يتمثل بها وكما يُرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقد قال من رآني في النوم فقد رآني حقاً فان الشيطان لا يتمثل بي ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة الى موضع النائم بل هي على سبيل وجود صورته في حس النائم فقط وسبب ذلك وسره طويل وقد شرحناه في بعض الكتب فان كنت لا تصدق به فصدق

عينك فانك تأخذ قبساً من نار كأنه نقطة ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة فتراه خطاً من نار وتحركه حركة مستديرة فتراه دائرة من نار والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان فى حسك لا فى الخارج عن حسك لان الموجود فى الخارج هي نقطة فى كل حال وانما تصير خطاً فى اوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجوداً فى حالة واحدة وهو ثابت فى مشاهدتك فى حالة واحدة

واما الوجود الخيالى فهو صورة هذه المحسوسات اذا غابت عن حسك فانك تقدر على ان تخترع فى خيالك صورة فيل وفرس وان كنت مغمضاً عينيك حتى كأنك تشاهده وهو موجود بكمال صورته فى دماغك لا فى الخارج

واما الوجود العقلي فهو ان يكون للشيء روح وحقيقة ومعنى فيتلقى العقل مجرد معناه دون ان يثبت صورته فى خيال او حس او خارج كاليد مثلاً فان لها صورة محسوسة ومتخيلة ولها معنى هو حقيقتها وهي القدرة على البطش والقدرة على البطش هي اليد العقلية وللقلم صورة ولكن حقيقته

ما تنقش به العلوم وهـذا يتلقاه العقل من غير أن يكون مقروناً بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية

وأما الوجود الشبهى فهو أن لا يكون نفس الشيء موجوداً لا بصورته ولا بحقيقته لا فى الخارج ولا فى الحس ولا فى الخيال ولا فى العقل ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبهه فى خاصة من خواصه وصفة من صفاته وستفهم هذا اذا ذكرت لك مثاله فى التأويلات فهذه مراتب وجود الاشياء

فصل

إسمع الآن امثـلة هذه الدرجات فى التأويلات . أما الوجود الذاتى فلايحتاج الى مثال وهو الذى يجرى على الظاهر ولا يتأوّل وهو الوجود المطلق الحقيقى وذلك كاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن العرش والكرسى والسموات السبع فانه يجري على ظاهره ولا يتأوّل اذ هذه اجسام موجودة

فى انفسها أدركت بالحس والخيال أو لم تدرك

وأما الوجود الحسى فأمثلته فى التأويلات كثيرة وأقنع منها بمثالين : احدهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يُؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش املح فيذبح بين الجنة والنار فان من قام عنده البرهان على ان الموت عرض او عدم عرض وانَّ قَلْبَ العرض جسماً مستحيل غير مقدور ينزّل الخبر على ان اهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون انه الموت ويكون ذلك موجوداً فى حسهم لا فى الخارج ويكون سبباً لحصول اليقين باليأس عن الموت بعد ذلك اذ المذبوح ميؤس منه ومن لم يقم عنده هذا البرهان فعساه يعتقد ان نفس الموت ينقلب كبشاً فى ذاته ويُذبح

المثال الثانى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرِضت عليَّ الجنة فى عُرْض هذا الحائط فمن قام عنده البرهان على ان الاجسام لا تتداخل وان الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على ان نفس الجنة لم تنتقل الى الحائط لكن تمثل للحس صورتها فى الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع ان يشاهد مثال شىء

كبير فى جرم صغير كما تشاهد السماء فى مرآة صغيرة ويكون ذلك ابصاراً مفارقاً لمجرد تخيل صورة الجنة اذ تدرك التفرقة بين أن ترى صورة السماء فى المرآة وبين ان تغمض عينيك فتدرك صورة السماء فى المرآة على سبيل التخيل

واما الوجود الخيالى فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم كأنى أنظر الى يونس بن متّى عليه عباءتان قَطَوانيتّان يلبي وتجيبه الجبال والله تعالى يقول له لبَّيْكَ يا يونس والظاهر ان هذا إنباءٌ عن تمثيل الصورة فى خياله اذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انعدم ذلك فلم يكن موجوداً فى الحال ، ولا يبعد أن يقال ايضاً تمثل هذا فى حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور ولكن قوله كأنى أنظر يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر والغرض التفهيم بالمثال لا عين هذه الصورة وعلى الجملة فكل ما يتمثل فى محل الخيال فيتصور أن يتمثل فى محل الابصار فيكون ذلك مشاهدة وقل ما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل

وأما الوجود العقلي فامثلته كثيرة فاقنع منها بمثالين :

احدهما قوله صلى الله عليه وسلم آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة امثال هذه الدنيا فان ظاهر هذا يشير الى انه عشرة امثالها بالطول والعرض والمساحة وهو التفاوت الحسى والخيالى ثم قد يتعجب فيقول ان الجنة فى السماء كما دلت عليه ظواهر الاخبار فكيف تتسع السماء لعشرة امثال الدنيا والسماء أيضاً من الدنيا وقد يقطع المتأوّل هذا التعجب فيقول المراد به تفاوت معنويّ عقليّ لا حسى ولا خيالى كما يقال مثلاً هذه الجوهرة اضعاف الفرس اى فى روح المالية ومعناها المدرك عقلاً دون مساحتها المدركة بالحس والتخيّل

المثال الثانى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خمّر طينة آدم بيده اربعين صباحاً فقد اثبت لله تعالى يداً ومن قام عنده البرهان على استحالة يد لله تعالى هى جارحة محسوسة أو متخيلة فانه يثبت لله سبحانه يداً روحانية عقلية اعنى انه يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها ان روح اليد ومعناها ما به يبطش ويفعل ويعطى ويمنع والله تعالى يعطي ويمنع بواسطة ملائكته كما قال عليه السلام أول ماخلق الله

العقل فقال بك اعطي وبك امنع ولا يمكن ان يكون المراد بذلك العقل عرضاً كما يعتقده المتكلمون اذ لا يمكن ان يكون العرض أول مخلوق بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلاً من حيث يعقل الاشياء بجوهره وذاته من غير حاجة الى تعلم وربما يسمى قلما باعتبار انه تنقش به حقائق العلوم فى الواح قلوب الانبياء والاولياء وسائر الملائكة وحياً والهاماً فانه قد ورد فى حديث آخر ان اول ما خلق الله تعالى القلم فان لم يرجع ذلك الى العقل تناقض الحديثان ويجوز أن يكون لشيء واحد اسماء كثيرة باعتبارات مختلفة فيسمى عقلا باعتبار ذاته وملكا باعتبار نسبته الى الله تعالى فى كونه واسطة بينه وبين الخلق وقلماً باعتبار اضافته الى ما يصدر منه من نقش العلوم بالالهام والوحي كما يسمى جبريل روحاً باعتبار ذاته وأميناً باعتبار ما اودع من الاسرار وذا مِرَّة باعتبار قدرته وشديد القوى باعتبار كمال قوته ومكيناً عند ذى العرش باعتبار قرب منزلته ومطاعاً باعتبار كونه متبوعاً فى حق بعض الملائكة وهذا القائل يكون قد اثبت قلما ويداً عقلياً لا حسياً

وخيالياً وكذلك من ذهب الى أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى إما القدرة أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون

وأما الوجود الشبهى فمثاله الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك مما ورد فى حق الله تعالى فان الغضب مثلا حقيقته انه غليان دم القلب لارادة التشفي وهذا لا ينفك عن نقصان وألم فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً وعقلياً نزله على ثبوت صفة اخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب كارادة العقاب والارادة لاتناسب الغضب فى حقيقة ذاته ولكن فى صفة من الصفات تقارنها واثر من الآثار يصدر عنها وهو الايلام فهذه درجات التأويلات

فصل

اعلم ان كل من نزّل قولاً من اقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين وانما التكذيب ان ينفى جميع هذه المعانى ويزعم ان ما قاله لا معنى له وانما هو

كذب محض وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقة ولا يلزم كفر المأولين ما داموا يلازمون قانون التأويل كما سنشير اليه وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من اهل الاسلام الا وهو مضطر اليه فابعد الناس عن التأويل احمد بن حنبل رحمة الله عليه وابعد التأويلات عن الحقيقة واغربها ان تجعل الكلام مجازاً أو استعارة هو الوجود العقلي والوجود الشبهي والحنبلي مضطر اليه وقائل به فقد سمعت الثقات من ائمة الحنابلة ببغداد يقولون ان احمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة احاديث فقط احدها قوله صلى الله عليه وسلم الحجر الاسود يمين الله فى الارض . والثانى قوله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن والثالث قوله صلى الله عليه وسلم انى لأجد نفس الرحمن من قِبَلِ اليمن فانظر الآن كيف اول هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فيقول اليمين تقبل فى العادة تقرباً الى صاحبها والحجر الاسود يقبل ايضاً تقرباً الى الله تعالى فهو مثل اليمين لا فى ذاته ولا فى صفات ذاته

ولكن فى عارض من عوارضه فسمى لذلك عيناً وهذا الوجود هو الذى سميناه الوجود الشبهي وهو ابعد وجوه التأويل فانظر كيف اضطر اليه ابعد الناس عن التأويل وكذلك لما استحال عنده وجود الاصبعين لله تعالى حساً اذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه اصبعين فتأوله على روح الاصبعين وهى الاصبع العقلية الروحانيـة اعنى ان روح الاصبع ما به يتيسر تقليب الاشياء وقلب الانسان بين لمة الملك ولمة الشيطان وبهما يقلب الله تعالى القلوب فكنى بالاصبعين عنهما وانما اقتصر احمد بن حنبل رضى الله عنه على تأويل هذه الاحاديث الثلاثة لانه لم تظهر عنده الاستحالة الا فى هذا القدر لانه لم يكن ممعناً فى النظر العقلى ولو امعن لظهر له ذلك فى الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله ، والاشعري والمعتزلى لزيادة بحثهما تجاوزا الى تأويل ظواهر كثيرة وأقرب الناس الى الحنابلة فى امور الآخرة الاشعرية وفقهم الله فانهم قرروا فيها اكثر الظواهر الا يسيراً ، والمعتزلة أشد منهم توغلا فى التأويلات وهم مع هذا — اعنى الاشعرية — يضطرون ايضاً الى

تأويل أمور كما ذكرناه من قوله انه يُؤتى بالموت فى صورة كبش املح وكما ورد من وزن الاعمال بالميزان فان الاشعرى أوّلَ وزن الاعمال فقال توزن صحائف الاعمال ويخلق الله فيها اوزاناً بقدر درجات الاعمال وهـذا ردٌّ الى الوجود الشبهى البعيد فان الصحائف اجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على اعمال هى اعراض فليس الموزون اذاً العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل ، والمعتزلي تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله وهو أبعد عن التعسف فى التأويل بوزن الصحائف وليس الغرض تصحيح احد التأويلين بل أن تعلم ان كل فريق وان بالغ فى ملازمة الظواهر فهو مضطر الى التأويل الا ان يجاوز الحد فى الغباوة والتجاهل فيقول الحجر الاسود يمين تحقيقاً ، والموت وان كان عرضاً فيستحيل فينتقل كبشاً بطريق الانقلاب ، والاعمال وان كانت اعراضاً وقد عدمت فتنتقل الى الميزان ويكون فيها اعراض هى الثقل ومن ينتهى الى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقة العقل

فصل

فاسمع الآن قانون التأويل فقد علمت اتفاق الفِرَق على هذه الدرجات الخمس فى التأويل وان شيئاً من ذلك ليس من حيز التكذيب واتفقوا ايضاً على ان جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر والظاهر الاول هو الوجود الذاتى فانه اذا ثبت تضمّن الجميع فان تعذر فالوجود الحسى فانه ان ثبت تضمن ما بعده فان تعذر فالوجود الخيالي او العقلي وان تعذر فالوجود الشبهى المجازى ولا رخصة للعدول عن درجة الى ما دونها الا بضرورة البرهان فيرجع الاختلاف على التحقيق الى البراهين اذ يقول الحنبلي لا برهان على استحالة اختصاص الباري بجهة فوق ويقول الاشعرى لا برهان على استحالة الرؤية وكأن كل واحد لا يرضى بما ذكره الخصم ولا يراه دليلا قاطعاً . وكيف ما كان فلا ينبغي ان يكفّر كلُّ فريق خصمه بأن يراه غالطاً فى البرهان نعم يجوز أن يسميه ضالا او مبتدعاً : أما ضالاً فمن حيث انه ضل عن الطريق عنده ، وأما

مبتدعاً فمن حيث انه ابتدع قولا لم يعهد من السلف الصالح التصريح به اذ المشهور فيما بين السلف ان الله تعالى يُرى . فقول القائل لا يُرى بدعة وتصريحه بتأويل الرؤية بدعة بل أن ظهر عنده ان تلك الرؤية معناها مشاهدة القلب فينبغى ان لا يظهره ولا يذكره لان السلف لم يذكروه لكن عند هذا يقول الحنبلى اثبات الفوق لله تعالى مشهور عند السلف ولم يذكر احد منهم ان خالق العالم ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا ولا داخلا ولا خارجاً وان الجهات الست خالية عنه وان نسبة جهة فوق اليه كنسبة جهة تحت . فهذا قولٌ بَدِعٌ اذ البدعة عبارة عن احداث مقالة غير مأثورة عن السلف وعند هـذا يتضح لك ان ههنا مقامين : احدهما مقام عوام الخلق ، والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظواهر رأساً والحذر عن ابداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة وحسم باب السؤال رأساً والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث واتباع ما تشابه من الكتاب والسنة كما روي عن عمر رضى الله عنه انه سأله سائل عن آيتين متعارضتين فعلاه بالدرة وكما روي عن

مالك رحمه الله انه سئل عن الاستواء فقال الاستواء معلوم والايمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة

المقام الثانى بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية فينبغى ان يكون بحثهم بقدر الضرورة وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع ولا ينبغي ان يكفر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً فان ذلك ليس امراً هيناً سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به فانهم اذا لم يتفقوا فى الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن وقد ذكرنا الموازين الخمسة فى كتاب (القسطاس المستقيم) وهى التى لا يتصور الخلاف فيها بعد فهمها اصلا بل يعترف كل من فَهِمَهَا بأنها مدارك اليقين قطعاً والمحصلون لها يسهل عليهم عقد الانصاف والانتصاف وكشف الغطاء ورفع الاختلاف ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف ايضاً إما لقصور بعضهم عن ادراك تمام شروطه وإما فى رجوعهم فى النظر الى محض القريحة والطبع دون الوزن بالميزان كالذى يرجع بعد تمام تعلم العروض فى الشعر الى الذوق لاستثقاله عَرْض كل شعر على العروض

فلا يبعد أن يغلط ، وإما لاختلافهم فى العلوم التى هى مقدمات البراهين فان من العلوم التى هى أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها والناس يختلفون فى التجربة والتواتر فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره وقد يتولى تجربة ما لا يتولاه غيره ، وإما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل ، واما لالتباس الكلمات المشهورة المحمودة بالضروريات والاوّليات كما فصلنا ذلك فى كتاب (محك النظر) . ولكن بالجملة اذا حصلوا تلك الموازين وحققوها أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على مواقع الغلط على يسر

فصل

من الناس مَن يبادر الى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ولا ينبغى أن يُبادر أيضاً الى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه فان كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهمّاتها فلا نكفّره وذلك كقول بعض الصوفية ان

المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس وقوله هذا ربي غير ظاهرها بل هي جواهر نورانية ملكية ونورانيتها عقلية لا حسية ولها درجات في الكمال نسبةُ ما بينها في التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس ويستدل عليه بان الخليل عليه السلام اجلّ من ان يعتقد في جسم انه اله حتى يحتاج الى ان يشاهد افوله افترى انه لولم يأفل اكان يتخذه الهاً ولو لم يعرف استحالة الالهية من حيث كونه جسما مقدَّراً واستدل بانه كيف يمكن ان يكون اول مارآه الكوكب والشمس هي الاظهر وهي اول ما يُرى واستدل بان الله تعالى قال أولا (وكذلك نُري ابراهيم ملكوت السموات والارض) ثم حكى هذا القول فكيف يمكن ان يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له وهذه دلالات ظنية وليست براهين

اما قوله هو اجل من ذلك فقد قيل انه كان صبياً لما جرى له ذلك ولا يبعد ان يخطر لمن سيكون نبياً في صباه مثل هذا الخاطر ثم يتجاوزه على قرب ولا يبعد ان تكون دلالة الافول على الحدوث عنده اظهر من دلالة التقدير والجسمية

وأما رؤية الكوكب أولاً فقد روى انه كان محبوساً فى صباه فى غار وانما خرج بالليل

وأما قوله تعالى اولا (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض) يجوز ان يكون الله تعالى قد ذكر حال نهايته ثم رجع الى ذكر بدايته فهذه وامثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه فهذا جنس تأويلهم وقد تأولوا العصا والنعلين فى قوله تعالى (اخلع نعليك) وقوله (وألق ما فى يمينك) ولعل الظن فى مثل هذه الامور التى لا تتعلق باصول الاعتقاد تجرى مجرى البرهان فى اصول الاعتقاد فلا يكفّر فيه ولا يبدَّع نعم ان كان فتح هذا الباب يؤدي الى تشويش قلوب العوام فيبدع به خاصة صاحبه فى كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره ويقرب منه قول بعض الباطنية [1]

(١) قوم يتسترون بالاسلام وهم خارجون عنه ولهم ألقاب كثيرة منها الملاحدة والقرامطة والباطنية والاسماعيلية والنصيرية والخزمية والمحمرة وهذه الاصناف منها مايعمهم ومنها مايخصهم وظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض لانهم لايؤمنون بنبي من الانبياء والمرسلين لا بنوح

ولا ابراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله عليهم اجمعين ولا بشيء من كتب الله المنزلة كالتوراة والانجيل والقرآن ولا يقرون بان للعالم خالقاً خلقه ولا بأن له ديناً امر به ولا ان له داراً يجزي الناس فيها على اعمالهم سوى دار الدنيا ويبنون عقائدهم تارة على قول الفلاسفة وتارة يؤلون الكتاب والسنة ويقولون بان الصلوات الخمس عبارة عن خمسة اسماء وهي علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة وان ذكر اولئك الخمس يجزيهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوة ، والصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلاً واسم ثلاثين امرأة يعدونهم في كتبهم ويقولون يدا ابي لهب هما ابو بكر وعمر والنبأ العظيم هو علي بن ابي طالب ولهم في معادلة الاسلام وقائع مشهورة وكتب مصنفه وقتلوا مرة الاسلام والقوهم في بئر زمزم واخذوا مرة الحجر الاسود وبقي عندهم باليمن ثم اعيد ومنهم صاحب قلعة ألموت وحسن الصباح ونصير الدين الطوسي ومن مذهبهم ان لا ينصحوا مسلماً ولا أحداً من اهل الذمة ولهم ضرر على المسلمين كثير وفي غدرهم لخليفة بغداد وقتل المسلمين كفاية . ومن أراد تفصيل معتقداتهم والحكم في معاملاتهم فليرجع لكتاب المستظهري للمؤلف أو لرسالة شيخ الاسلام ابن تيمية في الرد على النصرية اهـ

عاقل يعلم ان المتَّخذَ من الذهب لا يكون الهاً وهذا أيضاً ظن اذ لا يستحيل ان تنتهى طائفة من الناس اليه كعبدة الاصنام وكونه نادراً لا يورث يقيناً

واما ما يتعلق من هذا الجنس باصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كالذى ينكر حشر الاجساد وينكر العقوبات الحسية فى الآخرة بظنون واوهام واستبعادات من غير برهان قاطع فيجب تكفيره قطعاً اذ لا برهان على استحالة رد الارواح الى الاجساد وذِكْرُ ذلك عظيم الضرر فى الدين فيجب تكفير كل من تعلق به وهو مذهب اكثر الفلاسفة وكذلك يجب تكفير من قال منهم ان الله تعالى لا يعلم الا نفسه او لا يعلم الا الكليات فأما الامور الجزئية المتعلقة بالاشخاص فلا يعلمها لان ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً وليس من قبيل الدرجات التى ذكرناها فى التأويل اذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الاجساد وتفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل كلما يجري على الاشخاص مجاوزه حداً لا يقبل التأويل وهم

معترفون بان هذا ليس من التأويل ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق فى ان يعتقدوا حشر الاجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم فى ان يعتقدوا ان الله تعالى عالم بما يجري عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة فى قلوبهم جاز للرسول عليه السلام ان يفهمهم ذلك وليس بكاذب من اصلح غيره فقال مافيه صلاحه وان لم يكن كما قاله ، وهذا القول باطل قطعاً لانه تصريح بالتكذيب ثم طلب عذراً فى انه لم يكذب ويجب اجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة ففي الصدق واصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب وهذه أول درجات الزندقة وهي رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة فان المعتزلة يقرب مناهجهم من مناهج الفلاسفة الا فى هذا الأمر الواحد وهو ان المعتزلى لا يجوز الكذب على الرسول عليه السلام بمثل هذا العذر بل يأول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه ، والفلسفى لا يقتصر على مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد

وأما الزندقة المطلقة فهو ان تنكر أصل المعاد عقلياً

وحسياً وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً

وأما اثبات المعاد بنوع عقلى مع نفي الآلام واللذات الحسية واثبات الصانع مع نفي علمه بتفاصيل العلوم فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الانبياء وظاهر ظني — والعلم عند الله — ان هؤلاء هم المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام ستفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة كلهم فى الجنة الا الزنادقة وهى فرقة هذا لفظ الحديث في بعض الروايات وظاهر الحديث يدل على انه اراد به الزنادقة من امته اذ قال ستفترق أمتي ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون اصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته اذ يزعمون ان الموت عدم محض وان العالم لم يزل كذلك موجوداً بنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وينسبون الأنبياء الى التلبيس فلا يمكن نسبتهم الى الامة فاذاً لا معنى لزندقة هذه الامة الا ما ذكرناه

فصل

اعلم ان شرح ما يكفَّر به وما لا يكفَّر به يستدعي تفصيلا طويلا يفتقر الى ذكر كل المقالات والمذاهب وذكر شبهة كل واحد ودليله ووجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله وذلك لا يحويه مجلدات ولا تتسع لشرح ذلك اوقاتي فاقنع الآن بوصية وقانون

اما الوصية فان تكف لسانك عن اهل القبلة ما امكنك ما داموا قائلين لا اله الا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذر او غير عذر فان التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه

واما القانون فهو ان تعلم ان النظريات قسمان قسم يتعلق باصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع ، واصول الايمان ثلاثة الايمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع واعلم انه لا تكفير في الفروع اصلا الا في مسألة واحدة وهي ان ينكر اصلا دينياً علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر لكن

فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات وفى بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالامامة واحوال الصحابة . واعلم ان الخطأ فى اصل الامامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيءٌ منه تكفيراً فقد انكر ابن كيسان[١] اصل وجوب الامامة ولا يلزم تكفيره ولا يلتفت الى قوم يعظمون امر الامامة ويجعلون الايمان بالامام مقروناً بالايمان بالله وبرسوله ولا الى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الامامة فكل ذلك اسراف اذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم اصلا ومهما وُجد التكذيب وجب التكفير وان كان في الفروع فلو قال قائل مثلاً البيت الذى بمكة ليس الكعبةَ التى امر الله تعالى بحجها فهذا كفر اذ قد ثبت تواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافُه ولو انكر شهادة الرسول لذلك

(١) هو صاحب التصانيف فى القرآآت والغريب والنحو وكان أبو بكر ابن مجاهد يعظمه ويقول هو الحي من الشيخين يعنى ثعلباً والمبرد توفى رحمه الله فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومايتين اهـ شذرات الذهب لأبى الفلاح

البيت بانه الكعبة لم ينفعه انكاره بل يعلم قطعاً انه معاند فى انكاره الا ان يكون قريب عهد بالاسلام ولم يتواتر عنده ذلك وكذلك من نسب عائشة رضى الله عنها الى الفاحشة وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر لان هذا وامثاله لا يمكن الا بتكذيب الرسول او انكار التواتر والتواتر ينكره الانسان بلسانه ولا يمكنه ان يجهله بقلبه نعم لو انكر ما ثبت باخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ولو انكر ما ثبت بالاجماع فهذا فيه نظر لان معرفة كون الاجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه وانكر النظّام[1] كون

(١) هو ابراهيم بن سيار بن هانى البصرى المعروف بالنظام ويكنى أبا اسحاق شيخ من كبار المعتزلة وأئمتهم متقدم فى العلوم شديد الغوص على المعانى اداه الى المذاهب التى استبشعت منه تدقيقه وتغلغله لانه اطلع على كثير من كتب الفلاسفة ومال فى كلامه الى الطبيعيين منهم والالهيين فاستنبط من كلامهم رسائل ومسائل وخلطها بكلام المعتزلة وانفرد بها عنهم مثل قوله ان الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى خلافاً لاصحابه لانهم قضوا بانه قادر عليها لكنه لا يفعلها وله غير ذلك مما انتقد عليه وانما عدت سقطاته لكثرة اصابته

الاجماع حجة اصلا فصار كون الاجماع حجة مختلف فيه فهذا حكم الفروع

واما الاصول الثلاثة وكل مالم يحتمل التأويل فى نفسه وتواتر نقله ولم يتصور ان يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض ومثاله ما ذكرناه من حشر الاجساد والجنة

وكان من صغره يتوقد ذكاء ويتدفق فصاحة وله مع الخليل ابن احمد وغيره نوادر . اخذ الكلام عن ابى الهذيل العلاف الى ان برع وظهر فى ايام المعتصم وتبعه خلق كثير وناظر استاذه ابا الهذيل وظهر عليه مراراً وقيل له اتناظر ابا الهذيل قال نعم واطرح له رخا من عقلى توفى سنة احدى وعشرين ومايتين وله من العمر ست وثلاثون سنة وله كلام حسن وشعر رقيق ومن كلامه العلم شى لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا اعطيته كلك فانت من اعطائه لك البعض على خطر ، ومن شعره :

اريد الفراق واشتاقكم كأنا افترقنا ولم نفترق

واستغنم الوصل كي اشتفي وهل يشتفي ابداً من عشق

وعنه اخذ الجاحظ واترابه ومن اراد التطويل فليرجع لشرح رسالة ابن زيدون

والنار واحاطة علم الله تعالى بتفاصيل الامور وما يتطرق اليه احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد فننظر فيه الى البرهان فان كان قاطعاً وجب القول به ولكن ان كان في اظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم فاظهاره بدعة وان لم يكن البرهان قطعياً لكن يفيد ظناً غالباً وكان مع ذلك لا يعلم ضرره في الدين كنفي المعتزلي الرؤية عن الله تعالى فهذه بدعة وليس بكفر

وأما ما يظهر له ضرر فيقع في محل الاجتهاد والنظر فيحتمل أن يكفَّر ويحتمل أن لا يكفر . ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف انه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة وحل له شرب الخمر والمعاصي واكل مال السلطان فهذا ممن لا شك في وجوب قتله وان كان في الحكم بخلوده في النار نظر ، وقتل مثل هذا افضل من قتل مائة كافر اذ ضرره في الدين اعظم وينفتح به باب من الاباحة لا ينسد ، وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالاباحة مطلقاً فانه يمنع عن الاصغاء اليه لظهور كفره . وأما هذا فانه يهدم الشرع من الشرع ويزعم انه لم يرتكب فيه الا تخصيص

عموم اذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته فى الدين وربما يزعم انه يلابس ويقارف المعاصى بظاهره وهو بباطنه بريء عنها ويتداعى هذا الى أن يدّعي كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الدين . ولا ينبغى ان يظن ان التكفير ونفيه ينبغى ان يدرك قطعاً فى كل مقام بل التكفير حكم شرعى يرجع الى اباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود فى النار فأخذه كما أخذ سائر الاحكام الشرعية فتارة يُدْرَك بيقين وتارة بظن غالب وتارة يُتردد فيه ومهما حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى والمبادرة الى التكفير انما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل ولا بد من التنبيه على قاعدة أخرى وهو ان المخالف قد يخالف نصاً متواتراً ويزعم انه مؤوّل ولكن ذكر تأويله لا انقداح له اصلا فى اللسان لا على بعد ولا على قرب فذلك كفر وصاحبه مكذب وان كان يزعم انه مؤوّل . مثاله ما رأيته فى كلام بعض الباطنية ان الله تعالى واحد بمعنى انه يعطى الوحدة ويخلقها ، وعالمٌ بمعنى انه يعطى العلم لغيره ويخلقه ، وموجود بمعنى انه يوجد غيره ، واما ان يكون واحداً

فى نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا . وهذا كفر صراح لان حمل الوحدة على اتحاد الوحدة ليس من التأويل فى شىء ولا تحتمله لغة العرب اصلا ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقه الوحدة لسمّيَ ثلاثاً واربعاً لانه خلق الاعداد ايضاً فأمثلة هذه المقالات تكذيبات عبر عنها بالتأويلات

فصل

قد فهمت من هذه التكفيرات ان النظر فى التكفير يتعلق بأمور : احدها ان النص الشرعى الذى عدل به عن ظاهره هل يحتمل التأويل ام لا ؟ فان احتمل فهل هو قريب أم بعيد ؟ ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهيّن بل لا يستقل به الا الماهر الحاذق فى علم اللغة العارف بأصول اللغة ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجوزاتها ومنهاجها فى ضروب الامثال

الثانى فى النص المتروك انه ثبت تواتراً او آحاداً او

بالاجماع المجرد فان ثبت تواتراً فهو على شرط التواتر أم لا اذ ربما يُظن المستفيض تواتراً وحدُّ التواتر ما لا يمكن الشك فيه كالعلم بوجود الانبياء ووجود البلاد المشهورة وغيرها وانه متواتر فى الاعصار كلها عصراً بعد عصر الى زمان النبوة فهل يتصور ان يكون قد نقص عدد التواتر فى عصر من الاعصار وشرطُ التواتر أن لا يحتمل ذلك كما فى القرآن أما فى غير القرآن فيغمض مدرك ذلك جداً ولا يستقل بادراكه الا الباحثون عن كتب التواريخ واحوال القرون الماضية وكتب الاحاديث واحوال الرجال وأغراضهم فى نقل المقالات اذ قد يوجد عدد التواتر فى كل عصر ولا يحصل به العلم اذ كان يتصور ان يكون للجمع الكثير رابطة فى التوافق لا سيما بعد وقوع التعصب بين ارباب المذاهب ولذلك ترى الروافض يدّعون النص على عليّ بن ابى طالب رضى الله عنه فى الامامة لتواتره عندهم وتواترَ عند خصومهم فى اشياء كثيرة خلافُ ما تواتر عندهم لشدة توافق الروافض على اقامة اكاذيبهم وأتباعها

وأما ما يستند الى الاجماع فمدرك ذلك من اغمض

الاشياء اذ شرطه أن يجتمع اهل الحل والعقد فى صعيد واحد فيتفقوا على امر واحد اتفاقاً بلفظ صريح ثم يستمروا عليه مرة عند قوم والى تمام انقراض العصر عند قوم أو يكاتبهم امام فى اقطار الارض فيأخذ فتاويهم فى زمان واحد بحيث تتفق اقوالهم اتفاقاً صريحاً حتى يمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده ثم النظر فى ان من خالف بعده هل يكفر ؟ لان من الناس من قال اذا جاز فى ذلك الوقت أن يختلفوا فيحمل توافقهم على اتفاق ولا يمتنع على واحد منهم أن يرجع بعد ذلك وهذا غامض ايضاً

الثالث النظر فى أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر او هل بلغه الاجماع اذ كل من يولد لا تكون الامور عنده متواترة ولا مواضع الاجماع عنده متميزة عن مواضع الخلاف وانما يدرك ذلك شيئاً فشيئاً وانما يعرف ذلك من مطالعة الكتب المصنفة فى الاختلاف والاجماع للسلف ثم لا يحصل العلم فى ذلك بمطالعة تصنيف ولا تصنيفين اذ لا يحصل تواتر

الاجماع به . وقد صنف ابو بكر الفارسي (١) رحمه الله كتاباً في مسائل الاجماع وأُنكر عليه كثير منه وخولف في بعض تلك المسائل فاذاً من خالف الاجماع ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطئ وليس بمكذب فلا يمكن تكفيره . والاستقلال بمعرفة التحقيق في هذا ليس بيسير

(١) اسمه محمد بن احمد بن علي بن شاهويه الفارسي الفقيه القاضي ابو بكر البيضاوي كان اماماً جليلاً له الرتبة الرفيعة في الفقه وله معرفة بالادب وصنف في كل منهما وكان يعرف بالشافعي ، له من التأليف التبصرة في الفقه وله عليها شرحان احدهما تعليل مسائل التبصرة والثاني التذكرة شرح التبصرة ألفه بأربعة اشهر سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وله كتاب الارشاد على كفاية الصيمري

ذكره الحاكم ابو عبد الله في تاريخ نيسابور وقال اقام بنيسابور زماناً ثم خرج الى بخارى ثم انصرف الى نيسابور ورجع الى بلاد فارس فولي القضاء بها ثم رجع الى نيسابور وحدث بها وتوفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور رحمه الله وله في المذهب وجوه بعيدة تفرد بها ولم نرها منقولة عن غيره ولا اعلم عمن أخذ الفقه اه باختصار من الطبقات الكبرى لتاج الدين السبكي وابن خلكان

الرابع النظر فى دليله الباعث له على مخالفة الظاهر أهو على شرط البرهان أم لا ؟ ومعرفة شرط البرهان لا يمكن شرحها الا فى مجلدات وما ذكرنا فى كتاب (القسطاس المستقيم) وكتاب (محك النظر) انموذجٌ منه . وتكلُّ قريحة اكثر فقهاء الزمان عن قص شروط البرهان على الاستيفاء ولا بد من معرفة ذلك فان البرهان اذا كان قاطعاً رخص فى التأويل وان كان بعيداً فاذا لم يكن قاطعاً لم يرخص الا فى تأويل قريب سابق الى الفهم

الخامس فى ان ذكر تلك المقالة هل يعظم ضررها فى الدين أم لا ؟ فان ما لا يعظم ضرره فى الدين فالامر فيه اسهل وان كان القول شنيعاً وظاهرَ البطلان كقول الامامية المنتظرة ان الامام مختفٍ فى سرداب فانه ينتظر خروجه فانه قول كاذب ظاهر البطلان شنيع جداً ولكن لا ضرر فيه على الدين انما الضرر على الاحمق المعتقد لذلك اذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الامام حتى يدخل فيرجع الى بيته خاسئاً وهذا مثال والمقصود انه لا ينبغي ان يكفر بكل هذيان وان

كان ظاهر البطلان فاذا فهمت ان النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقل باحادها المبرزون علمت ان المبادر الى تكفير من يخالف الاشعري او غيره جاهل مجازف وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم وفي أي ربع من ارباع الفقه يصادف هذه العلوم فاذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فاعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك فان التحدى بالعلوم غريزة فى الطبع لا يصبر عنه الجهال ولاجله كثر الخلاف بين الناس ولو يُنكتُ من الايدى مَنْ لا يدرى لقل الخلاف بين الخلق

فصل

من أشد الناس غلوًّا واسرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا ان من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بادلتنا التى حررناها فهو كافر فهؤلاء

ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً وجعلوا الجنة وقفاً على شِرْذمة يسيرة من المتكلمين ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانياً اذ ظهر لهم في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة رضي الله عنهم حكمهم باسلام طوائف من اجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بعلم الدليل ولو اشتغلوا به لم يفهموه ومن ظن ان مدرك الايمان الكلامُ والادلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد ابدع حدّ الابداع بل الايمانُ نور يقذفه الله في قلوب عبيده عطية وهدية من عنده تارة ببينة من الباطن لا تمكنه التعبير عنها وتارة بسبب رؤيا في المنام وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره اليه عند صحبته ومجالسته وتارة بقرينة حال فقد جآء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم جاحداً به منكراً فلما وقع بصره على طلعته البهية زادها الله شرفاً وكرامة فرآها يتلألأ منها انوار النبوة قال والله ما هذا بوجه كذاب وسأله ان يعرض عليه الاسلام فأسلم وجآء آخر اليه عليه السلام وقال انشدك الله آلله بعثك نبياً فقال عليه السلام إي والله الله بعثني نبياً فصدقه

بيمينه وأسلم وهذا وامثاله اكثر من ان يحصى ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعلم الادلة بل كان يبدو نور الايمان بمثل هذه القرائن فى قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد اشراقاً بمشاهدة تلك الاحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب فليت شعري متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضى الله عنهم احضار اعرابى اسلم وقوله له الدليل على ان العالم حادث انه لا يخلو عن الاعراض وما لا يخلو عن الحوادث حادث وان الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة زائدة عن الذات لا هي هو ولا هي غيره الى غير ذلك من رسوم المتكلمين ولست أقول لم تجر هذه الالفاظ ولم يجر أيضاً مامعناه معنى هذه الالفاظ بل كان لا تنكشف ملحمة الا عن جماعة من الاجلاف يُسلِمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأُسارى يسلمون واحداً واحداً بعد طول الزمان او على القرب وكانوا اذا نطقوا بكلمة الشهادة علّموا الصلاة والزكاة ورُدوا الى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها . نعم لست انكر انه يجوز ان يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد اسباب الايمان فى حق بعض الناس ولكن

ليس ذلك بمقصور عليه وهو أيضاً نادر بل الانفع الكلام الجاري فى معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن . فاما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فانه يشعر نفوس المستمعين بان فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامي لا لكونه حقاً فى نفسه وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد فى قلبه ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة الى غيره ولا عن مذهب الشافعى الى مذهب أبي حنيفة ولا على العكس وتجرى هذه الانتقالات باسباب اخرَ حتى فى القتال بالسيف ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال واذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرَّحنا بان الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه الا لأحد شخصين رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريبٍ وَعظيٍّ ولا بخبر نقليّ عن رسول فيجوز ان يكون القول المرتب الكلامى رافعاً شبهته ودواءً له فى مرضه فيستعمل معه ذلك وُيحرس عنه سمعُ الصحيح الذى ليس به ذلك

المرض فانه يوشك أن يحرك فى نفسه اشكالا ويثير له شبهة تمرضه وتستنزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح

والثانى شخص كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الايمان بانوار اليقين يريد أن يحصل هذه الصنعة ليداوي بها مريضاً اذا وقعت له شبهة وليفحم بها مبتدعاً اذا نبغ وليحرس به معتقده اذا قصد مبتدع اغواءه فتعلم ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات وتعلمُ قدر ما يزيل به الشك ويدرأ الشبهة فى حق المشكل فرضُ عين اذا لم يمكن اعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه ، والحق الصريح ان كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقاداً جزماً فهو مؤمن وان لم يعرف أدلته بل الايمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً مشرف على التزاول بكل شبهة بل الايمان الراسخ ايمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبي بتواتر السماع أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن احوال لا يمكن التعبير عنها وتمام تأكده بلزومه العبادة والذكر فان من تمادت به العبادة الى حقيقة التقوى وتطهير الباطن عن كدورات

الدنيا وملازمة ذكر الله تعالى دائماً تجلت له أنوار المعرفة وصارت الامور التى كان قد أخذها تقليداً عنده كالمعاينة والمشاهدة وذلك حقيقة المعرفة التى لا تحصل إلا بعد انحلال عقدة الاعتقادات وانشراح الصدر بنور الله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فهو على نور من ربه كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شرح الصدر فقال نور يقذفُ فى قلب المؤمن فقيل وما علامته ؟ قال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود . فبهذا يعلم ان المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها غير مدرك حقيقة المعرفة ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعاً

فصل

لعلك تقول انت تأخذ التكفير من التكذيب للنصوص الشرعية . والشارعُ صلوات الله عليه هو الذي ضيق الرحمة على الخلق دون المتكلم اذ قال عليه السلام يقول الله تعالى لآدم

عليه السلام يوم القيامة يا آدم ابعث من ذريتك بَعثَ النار فيقول يا رب من كم فيقول من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين . وقال عليه السلام ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقةً الناجيةُ منها واحدة(١)

الجواب : ان الحديث الاول صحيح ولكن ليس المعنى به انهم كفار مخلدون بل انهم يدخلون النار ويُعرَضون عليها ويتركون فيها بقدر معاصيهم والمعصوم من المعاصى لا يكون فى الالف الا واحداً وكذلك قال الله تعالى (وإنْ منكم الا واردُها) ثم بعثُ النار عبارة عمَّن استوجب النار بذنوبه

(١) قد مر فى صحيفة ٥٥ قوله عليه السلام ستفترق أمتى بضعاً وسبعين فرقة كلهم فى الجنة الا الزنادقة . وهنا قوله عليه السلام ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة . ولا تنافي بين الحديثين اذ المقصود من البضع وسبعين فرقة فى الحديث الاول الفرق التى انشعبت من الفرقة الناجية . والمقصود هنا الفرق التى انشعبت من الزنادقة فهما كالمستثنى المتصل من المستثنى . والواحدة الناجية وما انشعب منها هي ماكان عليه رسول الله وأتباعه صلى الله عليه وسلم

ويجوز أن يصرفوا عن طريق جهنم بالشفاعة كما وردت به الاخبار وتشهد له الاخبار الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى وهى اكثر من ان تحصى . فمنها ما روي عن عائشة رضى الله عنها انها قالت فقدتُ النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فابتغيته فاذا هو فى مشربة يصلى فرأيت على رأسه انواراً ثلاثة فلما قضى صلاته قال مهيم من هذه قلت أنا عائشة يا رسول الله قال أرأيت الانوار الثلاثة ؟ قلت نعم يا رسول الله قال انّ آتٍ اتانى من ربى فبشرنى ان الله تعالى يُدخل الجنة من أمتي سبعين الفاً بغير حساب ولا عذاب ثم اتانى فى النور الثانى آت من ربى فبشرنى ان الله تعالى يُدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين الفاً سبعين الفاً بغير حساب ولا عذاب ثم اتانى فى النور الثالث آتٍ من ربى فبشرنى ان الله تعالى يدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين الفاً المضاعفة سبعين الفاً بغير حساب ولا عذاب فقلت يا رسول الله لا تبلغ أمتك هذا قال يكملون لكم من الأعراب ممن لا يصوم ولا يصلى

فهذا وامثاله من الاخبار الدالة على سعة رحمة الله تعالى كثير . فهذا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصةً . وأنا اقول ان الرحمة تشمل كثيراً من الامم السالفة وان كان اكثرهم يُعرضون على النار إما عرضة خفيفة حتى فى لحظة او فى ساعة وإما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار ، بل اقول ان اكثر نصارى الروم والترك فى هذا الزمان تشملهم الرحمة ان شاء الله تعالى اعني الذين هم فى اقاصى الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة اصناف صنف لم يبلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم اصلاً فهم معذورون ، وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون لهم وهم الكفار الملحدون ، وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا ايضاً منذ الصبا ان كذاباً ملبساً اسمه محمد ادّعى النبوة كما سمع صبياننا ان كذاباً يقال له المقفع بعثه الله تحدّى بالنبوة كاذباً فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الاول فانهم مع انهم لم يسمعوا اسمه سمعوا ضدّ أوصافه وهذا لا

يحرك داعية النظر فى الطلب

وأما الحديث الآخر وهو قوله الناجيـة منها واحدة فالرواية مختلفة فيه فقد روي الهالكة منها واحدة ولكن الاشهر تلك الرواية ومعنى الناجية هى التى لا تعرض على النار ولا تحتاج الى الشفاعة بل الذى تتعلق به الزبانية لتجرّه الى النار فليس بناج على الاطلاق وان انتزع بالشفاعة عن مخاليبهم وفى رواية كلها فى الجنة الا الزنادقة وهي فرقة ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة فتكون الهالكة واحدة وهى التى تخلد فى النار ويكون الهالك عبارة عمن وقع اليأس عن صلاحه لان الهالك لا يُرجى له بعد الهلاك خير وتكون الناجية واحدة وهى التى تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة لان من نوقش الحساب فقد عُذّب فليس بناجٍ اذاً ومن عُرّض للشفاعة فقد عرّض للمذلة فليس بناجٍ ايضاً على الاطلاق وهذان طريقان وهما عبارتان عن شر الخلق وخيره . وباقي الفرق كلهـم بين هاتين الدرجتين فمنهم من يعذب بالحساب فقط ومنهم من يقرب من النار ثم يصرف بالشفاعة ومنهم من يدخل النار ثم

يخرج على قدر خطاياهم فى عقائدهم وبدعتهم وعلى كثرة معاصيهم وقلتها . فاما الهالكة المخلدة فى النار من هذه الامة فهى فرقة واحدة وهى التى كذبت وجوّزت الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمصلحة

وأما من سائر الامم فمن كذبه بعد ما قرع سمعه على التواتر خروجه وصفته ومعجزاته الخارقة للعادة كشق القمر وتسبيح الحصى ونبع الماء من بين اصابعه والقرآن المعجز الذى تحدى به اهل الفصاحة وعجزوا عنه فاذا قرع ذلك سمعه فاعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر الى التصديق فهذا هو الجاحد الكاذب وهو الكافر ولا يدخل فى هذا اكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين بل اقول من قرع سمعه هذا فلا بد ان تنبعث به داعية الطلب ليستبين حقيقة الامر ان كان من اهل الدين ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فان لم تنبعث هذه الداعية فذلك لركونه الى الدنيا وخلوه عن الخوف وخطر امر الدين وذلك كفر وان انبعثت الداعية فقصر فى الطلب

فهو أيضاً كفر بل ذو الايمان بالله واليوم الآخر من اهل كل ملة لا يمكنه ان يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالاسباب الخارقة للعادة فان اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصّر فادركه الموت قبل تمام التحقيق فهو ايضاً مغفور له ثم له الرحمة الواسعة فاستوسعْ رحمة الله تعالى ولا تزن الامور الالهية بالموازين المختصرة الرسمية

واعلم ان الآخرة قريب من الدنيا فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة فكما ان اكثر اهل الدنيا فى نعمة وسلامة او فى حالة يغبطها اذ لو خير بينها وبين الاماتة والاعدام مثلاً لاختارها وانما المعذبُ الذى يتمنى الموت نادرٌ فكذلك المخلدون فى النار بالاضافة الى الناجين والمخرجين منها فى الآخرة نادر فان صفة الرحمة لا تتغير باختلاف احوالنا وانما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف احوالك ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال اول ما خط الله فى الكتاب الأَول انا الله لا إله الا أنا سبقت رحمتى غضبى فمن شهد ان لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة

واعلم ان اهل البصائر قد انكشف لهم سبق الرحمة وشمولها باسباب ومكاشفات سوى ما عندهم من الاخبار والآثار ولكن ذكر ذلك يطول فابشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة ان جمعت بين الايمان والعمل الصالح وبالهلاك المطلق ان خلوت عنهما جميعاً وان كنت صاحب يقين فى اصل التصديق وصاحب خطاأ فى بعض التأويل او صاحب شك فيهما او صاحب خلط فى الاعمال فلا تطمع فى النجاة المطلقة

واعلم انك بين ان تعذب مدة ثم تخلّى وبين ان يشفع فيك من تيقنت صدقه فى جميع ما جآء به او غيره فاجتهد ان يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعآء فان الامر فى ذلك مخطر

فصل

قد ظن بعض الناس ان مأخذ التكفير من العقل لا من الشرع وان الجاهل بالله كافر والعارف به مؤمن فيقال له الحكم باباحة الدم والخلود فى النار حكم شرعي لا معنى له قبل

ورود الشرع وان اراد به ان المفهوم من الشارع ان الجاهل
بالله هو الكافر فهذا لا يمكن حصره فيه لان الجاهل بالرسول
وبالآخرة أيضاً كافر ثم ان خصص ذلك بالجهل بذات الله
تعالى بجحد وجوده او وحدانيته ولم يطّرده في الصفات فربما
سوعد عليه وان جعل المخطىء في الصفات أيضاً جاهلاً او
كافراً لزمه تكفير من نفى صفة البقآء وصفة القدم ومن
نفى الكلام وصفا زائداً على العلم ومن نفى السمع والبصر زائداً
على العلم ومن نفى جواز الرؤية ومن اثبت الجهة واثبت ارادة
حادثة لا في ذاته ولا في محل وتكفير المخالفين فيه وبالجملة يلزم
التكفير في كل مسئلة تتعلق بصفات الله تعالى وذلك حكم
لا مستند له وان خصص ببعض الصفات دون بعض لم يجد
لذلك فصلا ومردّا ولا وجه له الا الضبط بالتكذيب ليعم
المكذب بالرسول وبالمعاد ويخرج منه المؤوّل ثم لا يبعد ان
يقع الشك والنظر في بعض المسائل من جملة التأويل او
التكذيب حتى يكون التأويل بعيداً ويقضي فيه بالظن وموجب
الاجتهاد فقد عرفت ان هذه مسئلة اجتهاد

فصل

من الناس من قال انما اكفّر من يكفرني من الفرق ومن لا يكفرني فلا ، وهذا لا مأخذ له فان قال قائل عليٌّ رضي الله عنه أولى بالامامة اذاً لم يكن كفراً فبان يخطّئ صاحبه ونظن ان المخالف فيه كافر لا يصير كافراً وانما هو خطآء في مسئلة شرعية وكذلك الحنبلي اذا لم يكفر باثبات الجهة فلم يكفر بان يغلط او يظن ان نافي الجهة مكذب وليس بمتأوّل واما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قذف احد المسلمين صاحبه بالكفر فقد بآء به احدهما معناه ان يكفره مع معرفته بما له فمن عرف من غيره انه مصدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يكفره فيكون المكفر كافراً

فأما ان كفره لظنه انه كذب الرسول فهذا غلط منه في حال شخص واحد اذ قد يظن به انه كافر مكذب وليس

كذلك وهذا لا يكون كفراً فقد افدناك بهذه الترديدات التنبيه على اعظم الغور فى هذه القاعدة وعلى القانون الذي ينبغي ان يتبع فيه فأقنع به والسلام

« تم كتاب فيصل التفرقة بحمد الله وحسن توفيقه »
وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تمر ٣٢ - ٩ - ٢

رسالة

في الوعظ والاعتقاد

ألفها

﴿ الامام الغزالى ﴾

« للشيخ أبي الفتح احمد ابن سلامة الدمي عفي عنهما »

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد بلغني عن لسان من أثق به من سيرة الشيخ الامام الزاهد حرس الله توفيقه وشمره فى مهمّ دينه ما قوى رغبتى فى مؤاخاته فى الله تعالى رجاءً لما وعد به عباده المتحابين ، وهـذه الأخوة لا تستدعي مشاهدة الاشخاص وقرب الابدان وانما تستدعى قرب القلوب وتعارُف الارواح وهى جنود مجندة فاذا تعارفت ائتلفت . وها أنا عاقدٌ معه عقـد الاخوّة فى الله تعالى ومقترح عليه أن لا يخلينى عن دعوات فى اوقات خلوته وأن يسأل الله تعالى أن يُرينى الحق حقاً ويرزقنى اتباعه وأن يرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه . ثم قرع سمعي انه التمس مني كلاماً فى معرض النصح والوعظ وقولاً وجيزاً فيما يجب على المكلف اعتقاده من قواعد العقائد :

أما الوعظ فلست أرى نفسى اهلاً له لأن الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة وفاقد النور كيف يستنير به غيره و (متى يستقيم الظل والعود أعوج) وقد أوحى الله تعالى الى عيسى ابن مريم عليه السلام عظ نفسك فان اتعظتْ فعظ الناس والا فاستحي مني وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تركت فيكم واعظين ناطق وصامتٍ فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت وفيهما كفاية لكل متعظ ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره ولقد وعظت بهما نفسى فصدَّقتْ وقبلت قولا وعقلا وابت وتمردت تحقيقاً وفعلا فقلت لنفسى أمَا أنتِ مصدقة بان القرآن هو الواعظ الناطق وانه الناصح الصادق فانه كلام الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ فقالت نعم فقلت قال الله تعالى (من كان يُريدُ الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوَفِّ اليهم اعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخسون اولئك الذين ليس لهم فى الآخرةِ الا النارُ وحَبِطَ ماصنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون) فقد وعدك الله تعالى بالنار على ارادة الدنيا وكل من لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا فهل تنزهت

عن ارادة الدنيا او حبها ولو أن طبيباً نصرانياً وعدك بالموت
أو المرض على تناولك الذ الشهوات لتحاشيتها واتقيتها اكان
النصرانى عندك اصدق من الله تعالى فان كان ذلك فما أكفرك
او كان المرض اشدّ عندك من النار فان كان كذلك فما اجهلك
فصدقت ثم ما انتفعت بل اصرت على الميل الى العاجلة
واستمرَّت ثم اقبلت عليها فوعظتها بالواعظ الصامت فقلت قد
أخبر الناطق عن الصامت اذ قال تعالى (ان الموتَ الذى تَفرونَ
منه فانه ملاقيكم ثم تُردُّونَ الى عالِم الغيبِ والشهادةِ فينبئُكم
بما كنتم تعملون) وقلت لها هبي انك ملت الى العاجلة أفلست
مصدقةً بان الموت لا محالة آتيك وقاطع عليك كل ما أنت
متمسكة به وسالب منك كل ما أنت راغبة فيه وكل ما هو
آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال الله تعالى (أفرأيتَ
انْ متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعَدونَ ما أغنى عنهم ما كانوا
يمتَّعون) أفأنتِ مخرجة هذا عن جميع ما أنت فيه والحر الحكيم
يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها واللائم يتمسك بها الى
أن يخرج من الدنيا خائباً خاسراً متحسراً فقالت صدقتَ فكان

ذلك منها قولاً لا تحصيل وراءه اذ لم تجتهد قط فى التزود للآخرة كاجتهادها فى تدبير العاجل ولم تجتهد قط فى رضاء الله تعالى كاجتهادها فى رضاها بل كاجتهادها فى طلب الخلق ولم تستحي قط من الله تعالى كما تستحي من واحد من الخلق ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها فى الصيف فانها لا تطمئن فى اوائل الشتاء ما لم تفرغ من جميع ماتحتاج اليه فيه من آلاته مع ان الموت ربما يختطفها والشتاء لا يدركها والآخرة على يقين لا يتصور أن يختطف منها ، وقلت لها ألا تستعدي للصيف بقدر طوله وتصنعي آلة الصيف بقدر صبرك على الحر . قالت نعم . قلت فاعصي الله بقدر صبرك على النار واستعدي للآخرة بقدر بقائك فيها . فقالت هذا هو الواجب الذى لا يرخص فى تركه الا الاحمق ثم استمرت على سجيتها فوجدتني كما قال بعض الحكماء ان فى الناس من يموت نصفه ولا ينزجر نصفه الآخر وما أراني إلا منهم ولما رأيتها متمادية فى الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن رأيت أهم الامور . التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها فان ذلك من

العجائب العظيمة فطال عليه تفتيشى حتى وقفت على سببه وها انا مؤتسى واياه بالحذر منه فهو الداء العضال وهو السبب الداعى الى الغرور والاهمال وهو اعتقاد تراخى الموت واستبعاد هجومه على القرب فانه لو اخبره صادق فى بياض نهاره انه يموت فى ليلته أو يموت الى أسبوع أو شهر لاستقام واستوى على الطريق المستقيم ولترك جميع ما هو فيه مما يظن انه مما يتعاطاه للهِ تعالى وهو مغرور فيه فضلاً عما يعلم انه ليس للهِ تعالى فانكشف تحقيقاً انَّ من اصبح وهو يأمل ان يمسى أو امسى وهو يأمل ان يصبح لم يخل من الفتور والتسويف ولم يقدر الا على سير ضعيف فاوصيه ونفسى بما اوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال صلِّ صلاة مودّع ولقد اوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ولا ينتفع بوعظ الا به فمن غلب على قلبه فى كل صلاة انها آخر صلاته حضر معه قلبه فى الصلاة وتيسر له الاستعداد بعد الصلاة ومن عجز عن ذلك فلا يزال فى غفلة دائمة وغرور مستمر وتسويف متتابع الى أن يدركه الموت فتدركه حسرة الفوت وانا مقترح عليه

أن يسأل الله تعالى ان يرزقني هذه الرتبة فاني طالب لها وقاصر عنها وأوصيه ان لا يرضى من نفسه الا بها وان يحذر من مواقع الغرور فاذا وعدت النفس بذلك طالبها بموثق غليظ من الله تعالى فان خداع النفس لا يقف عليه إلا الا كياس

وأما اقل ما يجب اعتقاده على المكلف فهو ما يترجمه قوله لا إله الا الله محمد رسول الله ثم اذا صدّق الرسول فينبغي أن يصدقه في صفات الله تعالى فانه حيٌّ قادر عالم متكلم مريد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وليس عليه بحث عن حقيقة هذه الصفات وان الكلام والعلم وغيرهما قديم أو حادث بل لو لم تخطر له هذه المسئلة حتى مات مات مؤمناً وليس عليه تعلم الادلة التي حررها المتكلمون بل كلما حصل في قلبه التصديق بالحق بمجرد الايمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن ولم يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الاعراب وعوام الخلق الا من وقع في بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل لقدم الكلام وحدوثه ومعنى الاستواء والنزول وغيره فان لم يأخذ ذلك قلبه وبقي مشغولا

بعبادته وعمله فلا حرج عليه وان أخذ ذلك بقلبه فاقل الواجبات عليه ما اعتقده السلف فيعتقد في القرآن القدم كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق ويعتقد ان الاستواء حق والسؤال عنه مع الاستغناء بدعة والكيفية فيه مجهولة فيؤمن بجميع ما جاء به الشرع ايمانا مجملا من غير بحث عن الحقيقة والكيفية فان لم ينفعه ذلك وغلب على قلبه الاشكال والشك فان امكن ازالة شكه واشكاله بكلام قريب من الافهام وان لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً عندهم فذلك كاف ولا حاجة به الى تحقيق الدليل بل الاولى ان يُزال اشكاله من غير برهان حقيقة الدليل فان الدليل لا يتم الا بدرك السؤال والجواب عنه ومهما ذكرت الشبهة (فلا يبعد ان ينكر) بقلبه ويكل فهمه عن درك جوابه اذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن الكلام وانما زجروا عنه لضعفاء العوام

وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الاشكال ومنع الكلام للعوام يجري مجرى منع الصبيان من شاطئ نهر

الدجلة خوفاً من الغرق ورخصة الاقوياء فيه تضاهى رخصة الماهر فى صنعة السباحة الا أن ههنا موضوع غرور ومزلة قدم وهو ان كل ضعيفٍ في عقله راض من الله تعالى فى كمال عقله يظن بنفسه انه يقدر على ادراك الحقائق كلها وانه من جملة الاقوياء فربما يخوضون فيغرقون فى بحر الجهالات حيث لا يشعرون فالصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذى لا تسمح الاعصار الا بواحد منهم أو اثنين سلوكُ مسلكِ السلف فى الايمان بالرسل والتصديق المجمل بكل ما انزله الله تعالى واخبر به رسوله من غير بحث وتفتيش عن الأدلة بل الاشتغال بالتقوى عليه شغل شاغل اذ قال صلى الله عليه وسلم حيث رأى اصحابه يخوضون بعد ان غضب حتى احمرت وجنتاه أبهذا امرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما امركم الله به فافعلوه وما نهاكم عنه فانتهوا فهذا تنبيه على المنهج الحق واستيفاء ذلك شرحناه فى كتاب (قواعد العقائد) فيطلب منه والسلام

تمت الرسالة بعون الله ومنه والحمد لله وحده وصلى
الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم